14

مجلة تشكيلية تصدرها وزارة الثقافة والاعلام

الرواق

بغداد

● مي مظفر

● الفـــرات .. البيئـــة .. ونوري الراوي

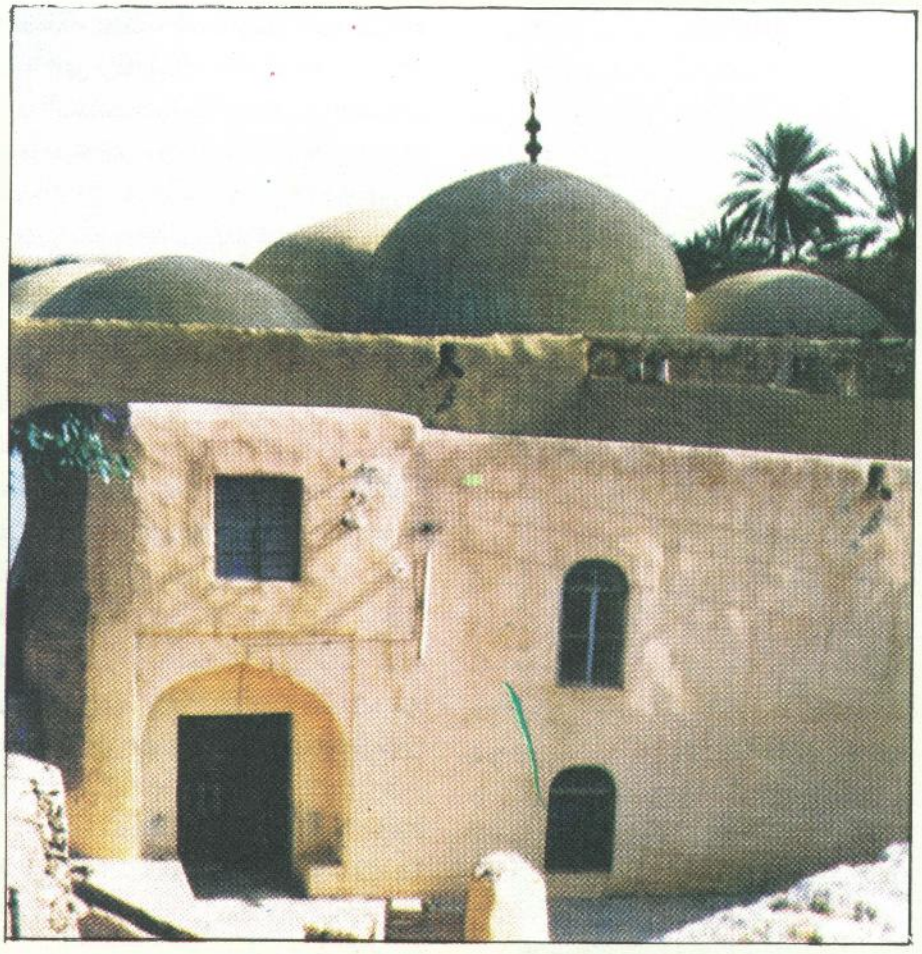

اذا غرقت عانه واندرست ملامحها النضرة وبســـاتينها الغناء وغارت ارض الحضـــارة العريقة* فهناك من مـد كفـه وانتشـلها ليجعل من هذه الكف ارضاً تحتفظ ببعض هـذه المعـالم . واذا كانت اشـجار التين والتوت والنخل المتجـذرة على الضـفاف كما لو كانت قـائمة منذ الأزل فـان ناس المدينة نبت آخر عريق على شواطىء النهر نبت لو اقتلعته فسـتقتلع عصـب الحياة . ولعل نوري الراوي احد هذه الجذور التي تفرغت وامتدت نحو العاصمة بظـلالها ثم ارتحلت نحو عواصـم اخـرى في العـالم بينمـا يبقـى الاصـيل ثابتاً هناك يمتص غذاءه من نسغ غائر في ضفة الفرات .

لا ادري لماذا يقـــول نوري الراوي بانه يرسم راوه ولم اجده الا غارقاً في معـالم عانه .. ومـــا عانة الا الام ليراوه الجبلية فهي تطوقها بجزرها الخضراء فتبدو راوة مطلة عليها مـن الاعلى ترقـب المشـاهد الطبيعية التي تشـكلها عانه وتحتضـــن معـــالمها الغنية . الدور والقباب والمنارة والدروب الضيقة وغابات النخل والنواعير وكل العناصر التي تتشكل منها مفـردات لوحة نوي . انما هي من خصـائص عانه كما ان حميمية الجو وهـدأته وخلو عالمه من الناس هي الاخرى من سـمات هـذه المدينة المستقرة بصمتها . لم يستعر الفنان مـن راوة الا بضـع مفـردات عززت لديه الشكل في بناء اللوحة اهمها الضريح الذي يعتلي قمة الجبل والذي يشـكل نمـوذجاً مهماً من النماذج المعمارية التي اعتمـدها الفنان في تكويناته : ذلك الاثر الذي يميّز اعماله بل يميزها بحدة وصرامة .

قد لا تزجـك لوحـة نوري الراوي بأية معضلة فـكرية معقـدة ، ولا تحملك نحـو أبعاد ميتافيزيفية متشابكة الا انها عمـل ارضي حلمي مفرط في حساسيته يستهوي المشاهد ويقوده بوداعة فيدخله في رحـابه ثم يتركه يبحـــث عبر حســـية التكوين وحداقته ، عبر تصـميمه المركب وضربات الوانه العفوية الحـرة عن حقيقـة هـذه المدينة : اهي ضرب مـن الخيال ام واقـع متخيل ؟ وربمـا يندهش المشـــاهد حين يكتشف من بعد ان هذه الاشكال هي ابنة تلك الارض العـريقة تطـورت بتلقـائية وطـواعية حتى غدت بيوتهـا وجـدرانها المائلة الخطوط اثراً فنياً معاصراً ولوحـة تجنح بين الحلم والواقـــع . اذا لم يكن التراث ذلك النســـغ الحـــي بين الماضي والحاضر فما هو التراث اذاً ؟ اليس هـو ذلك الكيان المطـوع الذي لا يظهـر قسراً وانما ينبعـث مـن ذات الفنان لانه عنصر كامن في لا وعيه .. ونبض يتحـرك مـع الوجـدان وينتشي بانتشـــاء الحس الخلاق ؟!

لقد توصل رسـامو عصر النهضـة الى حقيقة ان الرسم ما هو الا تصوير الاشياء الحية في الطبيعـــة . وذهـــب الفنانون المحدثون الى مـا دون ذلك الى اسـتكناه جوهر الاشكال فأمتزج العلم بالفن . ولعل النظر الى الطبيعة امر ليس سـهلا كمـا يبدو والاشـياء الكامنة وراء ظـــواهرها تحتاج الى عين مدربة بل تحتاج الى قـوة الادراك والتبصر الذي يميز رؤية عن اخرى ، بل انهـا معـرفة كمـــا يقـــول كونستابل :

الفرات البيئة .. نوري الراوي

«ان النظر الى الطبيعة امر من الضروري اكتسابه وتعلمه كما يتعلم المرء قراءة اللغة الهيروغليفية .

اذا استثنينا تجاربه في رسم الاشكال التجريدية عبر مراحل مختلفة كان آخرها عام 1970 على وجه التقريب ، فان نوري الراوي بدأ فناناً يرسم الطبيعة وظل مخلصاً لهذه الطبيعة حتى استقر عليها وابدع لونه المتميز في اظهارها . ولعل هذه النزعة نحو الطبيعة كما يبدو تنسجم كل الانسجام مع شخصيته الانسانية والفنية . وحين بدأ مع الرواد يرسم الطبيعة ويخرج معهم في رحلاتهم الفنية تلك ابان الخمسينات كانت تجربته بصرية محضة : كانت سعياً وراء الاحاطة باللون وفهمه ونقل الشكل الارضي الملون الى اللوحة . بل ان انجذابه الى مجموعة الرواد هو بحد ذاته تعزيز لاصراره على الانتماء الى الاجواء الريفية من دون المدنية . كما ان نوري الراوي منذ ان كان يمارس الرسم طالباً كان ينزع نزعة حرة في تصوير اشكاله ، لذا فان رسم الطبيعة باسلوب الانطباعيين غدا عاملا بناء في رفد حواسه وتنمية قدراته الحسية كما ساعده على مزاولة الشكل بالمشاعر باستخدام اللون كقيمة تعبيرية وجدانية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنفسية الرسام ومزاجه .

واذ يتميز كل فنان عن غيره من الفنانين في انتقائه للعناصر كما يختلف عنهم في موقفه الحسي والفكري فأن نوري الراوي كان من الفنانين الذين تعني لهم الطبيعة امراً آخر غير الشكل والضوء : فهي الارض الام والصدر الرؤوم الذي منحه السلام والطمأنينة ، وحين التقى في المدينة بوجهها الآخر فانه سرعان ما آلفه واستكان له . ولكن للعصر موضاته وروحه وتياراته المحركة الجارفة : تلك الريح التي ما تفتأ في محاولاتها اقتلاع من لا جذر له .. وتلفه في دوامتها حتى تلهيه عن نفسه وتجعله يحس لوهلة انه يمتلك لغة اشمل وانه لمن المغري ان يخوض غمار تجربة جديدة . فبالتجربة وحدها يلتقي الفنان مع الصدفة التي ربما يكتشف نفسه من خلالها بشكل مفاجيء مدهش فيعثر على ضالته ثم يدرك للتو بأن عليه ان يبدأ الطريق من هذه الخطوة المكتشفة .

واللوحات التجريدية التي نفذها نوري الراوي على ما فيها من قدرة على تحقيق الايقاعات اللونية لم اقع ، في البعض الذي رأيته ، على رؤية متميزة للفنان فقد بدت وكأنها تجارب من حياة قصيرة النفس . انها ـ اي المجردات ـ ولا شك مستمدة ايضاً من الطبيعة فالتجريد سمة اصيلة من سمات الارض والآفاق ولكن هذه السمة لا بد ان ترتبط بتصور معين وبحث بصري يأخذ مساره الفني على اللوحة ويعطي للتجربة ابعادها الذهنية والتقنية في آن واحد . ربما يعود نوري الراوي الى التجريد منطلقاً من رسومه الحالية التي تعتمد الاشكال المعمارية لمدينتي عانة وراوه بل انها حالياً تتضمن عناصر مجردة قد تغدو لو انفصلت ، موضوعاً مليئاً بالرمز والدلالات . فقريته الكبيرة نفسها قد تتحول الى مخزون من العناصر التجريدية ان اراد الفنان استغلالها ، ولكن ذلك امر سيكون له شأن آخر . اما المرحلة التي نحن بصدد الحديث عنها والتي نقع بين نقطتين متميزتين من انماط نقله للطبيعة فهي لا تملك تلك الخصيصة التي تجعلني اقف عندها طويلا خصوصاً وان الفنان نوري الراوي يؤكد بنفسه ان التجريد ، كما ظهر في اعماله ، لم يكن يعني له أكثر من تجربة شكل ولون على اللوحة .

يشير الناقد ومؤرخ الفن الانكليزي اي . ا هـ . كومبرج في كتابه «الفن والوهم» الى ان الفنان يحاول جهده تقليد الموضوع المراد رسمه غير ان هذا الشكل سرعان ما يتخذ على القماش هيئة اخرى ويكتسي بحس خفي ذي دلالات ومعاني ابعد بكثير من واقع الشيء المرسوم . ان هذه الدلالات الخفية هي التي تميز الابداع الفني عن الواقع . فالابداع هو عملية تحويل الخطوط المرئية غير ذات المعنى في الطبيعة الى مادة تفهم وتحس : وهي عملية اخضاع الصورة لايقاع واحد وربط اجزائها وتعميمها . وعلى الرغم من ان نوري الراوي يستقي مصادره البصرية من ذاكرته التخيلية فان المفردة المنتقاة ، خصوصاً التكوينات التي تعتمد شكل البيوت الجصية والقباب والسلالم ، هي من صميم واقع المدينة ومن اساسيات معالمها الا ان المرء يعجب من حدة تلك الذاكرة وصفائها .. فعندما ترى مدينة عانة بالذات وتمحص ابنيتها وتبحر في تركيبة خطوطها وابوابها الخشبية ونوافذها وسلالمها المنحوتة في الجبل تدرك للتو بأن الفنان لم يفته اي من تفاصيلها الخاصة . فهو يحاول ـ عبر ذاكرته ـ ان يستنسخ المنطقة ثم يعيد تركيبها على القماش فيراكم الاشكال ويعبر عنها في تشكيل فني تبعاً لما تقتضيه شروط الابداع .

تحتفظ الذاكرة بكل ما هو بارز وجوهري ورمزي . فيما الذي يجعل فناناً يعيش في مدينة مزدحمة منذ سنوات طوال ويزج نفسه في معمعان حركتها ومسؤوليتها الوظيفية ـ ما الذي يجعله يركن في خلوته الى تلك اللحظات الوديعة الصافية ويختبىء في الذاكرة ينقب فيها عند شكل يفرغ فيه حواسه وامانيه ويبثه حنينه ؟

اذا كان الفن يولد من الفن وليس من الطبيعة كما يقول اندريه مالرو فالطبيعة اذا الوسيلة أو الوعاء الذي يتوسل به الفنان لايصال فنه . ولعل نوري الراوي يلجأ في تعبيره الى حالة من الهروب ،

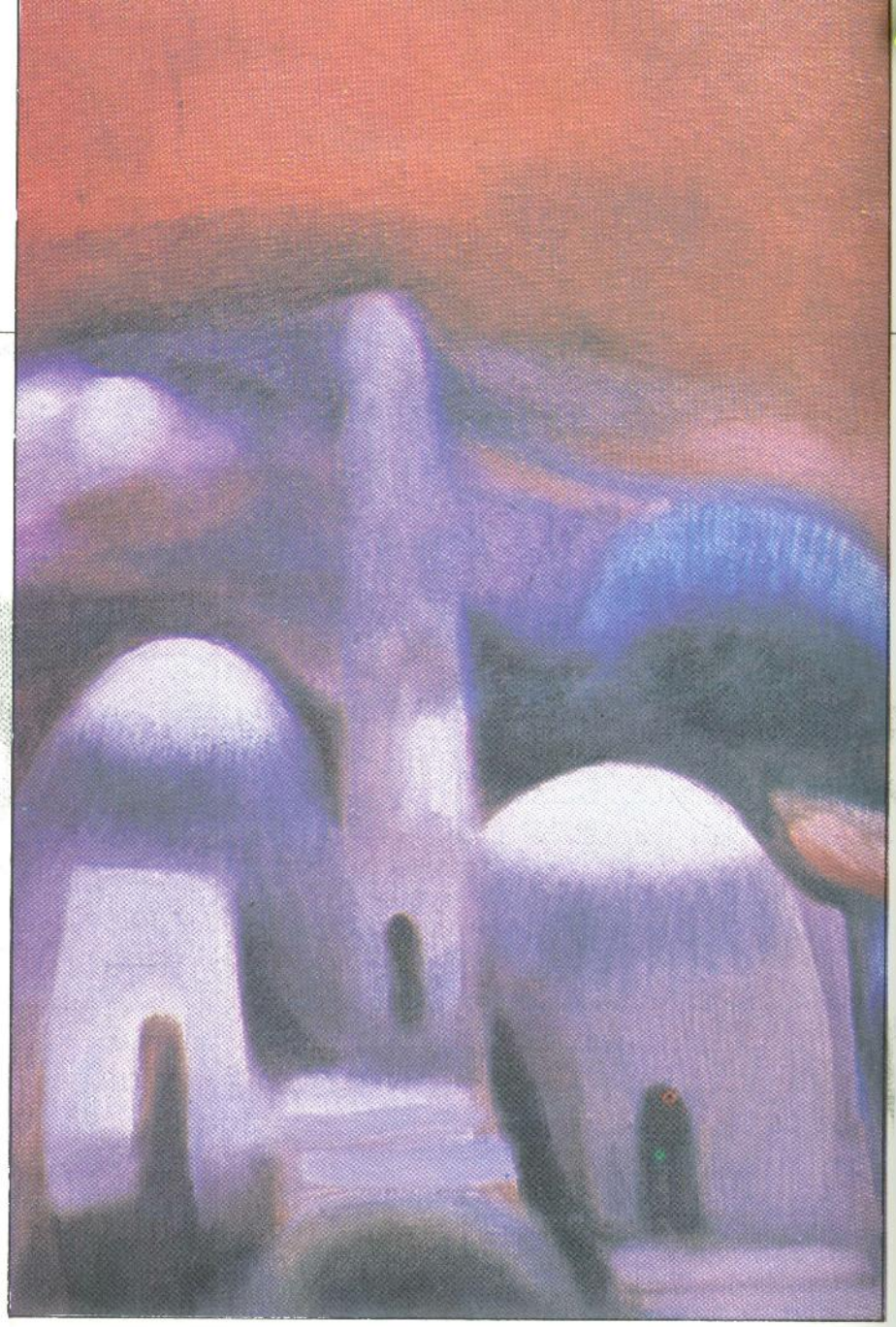

والهروب صفة من صفات الفنان ليتوخى منه العودة الى العالم الذي انشأه وفطره ... وربما يكون قد اختار موضوعه بوعي بصري بعد أن وجد أن ثمة خصوصية في الشكل المنتقى ، ولعل الاثنين اجتمعا وتآلفا . غير ان الفن ليس تعبيراً وجدانياً وحالة انفعالية حسب وانما هو ، بالنسبة للفنان التشكيلي ، بحث بصري توازي أهميته الناحية الحسية ان لم تتعدها . وحين اختار الفنان نموذج البيوت الجصية كوحدة اساسية في التكوين فقد دأب على الاستفادة من الشكل فاخضعه للمضمون وهو ما فتىء يتنامى ويتطور تبعاً لتجربة الفنان .

ربما كانت هناك محاولات سابقة لادخال هذه الوحدات المعمارية في اللوحة كما يقول الفنان نوري الراوي عن تجربته هذه ، غير ان اللوحة كما استقرت عليه حالياً تعود تجربتها الى بداية السبعينات . ولا بد لمن يذكر لوحاته البنية ذات الالوان الارضية والمظهر الخشن الملمس ان يتحسس عفوية البناء وتجسيد الشكل تجسيداً . يمنحه بعداً انسانياً . فخطوط الجدران شبه المقوسة وفتحات النوافذ والابواب المظللة تكتسب تعبيراً بشرياً يدل على ان الفنان في استعادة مادته من الذاكرة يؤنسنها ويجعلها اشكالا تنطق معلنة عن حالها . علماً بان هذه الفتحات غير المنتظمة هي في الاصل توحي بانها ملامح بشرية . ولا شك في ان الملمس الخشن الذي يصور به الابنية واستخدامه للون البني ومشتقاته هو اقرب بكثير الى واقع ابنية المدينة ولكن ذلك كان محض صدفة على ما يبدو لي لان للون قيمة تعبيرية في فن نوري يستخدمه بانفعالية حرة يفرضها واقعه النفسي فهو يستعير الشكل من الطبيعة ويفرغ شحنته الحسية في مبالغته بالتجسيد ، وإضفائه اللون إضفاء يكسبه صنعته الشعرية ويجعله يبدو اقرب ما يكون الى احلام اليقظة .

الفرات البيئة .. نوري الراوي

ان النزعة الرومانسية الحادة لدى نوري الراوي لا تمجد جمالا آفلا بقدر ما تؤكده على يقظة الاحساس وتفجره .. بل انها تحمي قيمة جمالية وتؤكدها . والرومانسية كفكر وادب وحساسية متأصلة في نفس الفنان لانها كانت المادة الاساس في تكوين ثقافته ابان الثلاثينات والاربعينات وهي نفس الفترة التي عاشها في مدينته الريفية ويبدو لي انه حريص كل الحرص للحفاظ على جوهر يتسم بنقاء العاطفة البكر . فهو ما ان يستعيد هدوءه حتى يجد نفسه مشدوداً الى تلك الفترة يأنس لها وتأنس له فيبدع مستعيراً لغتها ونافخاً فيها من وهجه ما يجعلها تتقد من جديد كالجمرة .

ومواكبة اعمال نوري الراوي خلال السبعينات وبداية الثمانينات تحمل مدلولات اعمق . ففي الوقت الذي تبعد فيه الشقة بين الفنان وذكرياته البصرية فتبدو الصورة اشد غوراً في الضباب واقرب الى عالم الحلم ، يتأكد الجانب الحسي وتطغي الناحية العاطفية متوهجة بالحياة . فبعد ان استقر الشكل وغدا من الاساسيات البصرية في اللوحة ان ترى عناصر قريته كالبيت والناعور والنهر والشجر والنخل ، ان ترى التشكيل المتدرج الذي يلتصق بنهاياته في حافة النهر ليظهر من خلال هذا التدرج اكبر قدر ممكن من الشخصية المعمارية البدائية لهذه الدور والاضرحة والمنائر .. بعد ان استقرت هذه العناصر اخذت تظهر في اللوحة اشكال اخرى ذات دلالات ، رمزية فكانت المرأة والطير والبراق يلوحون في آفاق مفتوحة او يظهرون كما لو كانوا قد نبعوا من عالم مجهول .. فهم اجزاء مبعثرة من ذاكرة هذه الطبيعة التي يتوحد فيها الفنان هنا بشكل يصعب علينا اجراء اي فصل بين الارض النهر البيت النخلة وبين ماهو كامن في دخيلة الفنان .

يرتبط تحول الشكل داخل اللوحة ارتباطاً وثيقاً بتحول اللون . فحين يكتسب اللون حسية وهاجه (كانت جد واضحة في اعماله الاخيرة التي عرضت في معرضه الشخصي في شباط 1983) فان قباب وخطوط النوافذ والأبواب تلين الى حد بعيد ، كما تظهر المعالم البعيدة في عمق اللوحة غارقة بقوة الضوء .. وذلك يختلف كل الاختلاف عن صلابة الخط وواقعية الشكل ووضوحه في تصوير الدور بالالوان البنية الخشنة المظهر .

للضوء تأثير سحري غريب على الفنان التشكيلي ، والضوء في عانه له وقع آخر على الطبيعة ، فهو صريح ومتوهج من غير قسوة او حدية .. بل يبدو ناعماً في عز الظهيرة وتجده حين يسقط على الازقة الضيقة او تلك المحاذية للجبل والمرتفعة بعض الشيء على مستوى النهر فانه يتفاعل مع لون الحجر المشرب بالصفرة فتنكسر حدة الشمس حتى لكأن هذه الاحجار مصفاة تغربل الضوء ولا تترك منه الا لمسته الرقيقة .. انه يتوهج من غير أن يفقد الاشياء رونقها وحين تقف على النهر يبعد المشهد على نفس مستوى الرؤية الواضحة لان المشاهد حين يمد بصره الى النهر يكون دائماً في الظل فتتبدى الاشكال واضحة من غير ان يهاجم الشعاع عينه فيحول بينه وبين رؤية المعالم بجلاء . ولعل هذا الضوء تجده يسقط بشكل تلقائي على انحناءات القباب التي غدت في اعمال الفنان الاخيرة رؤوساً شبحية بيضاء ـ كما يغدو هالة تحيط بفتحات الدور والنوافذ وتهز اطراف النخيل وكل ما يريد نوري الراوي ابرازه للعين .

ابتعاد الفنان بذاكرته عن واقعه المعاش ابان الحداثة جعله يخضع التجربة لمزاجه النفسي وحالاته الانسانية حتى غدت القباب المنحرفة في دائريتها ملساء كما لو كانت وجوهاً تستغيث متطلعة بأسى وهي تنتظر بهدوء صامت عجيب . لقد أنس الحجر واحاله الى كائن حي يتفجع . كل